المجلة الجزائرية للدراسات العثمانية والبحر المتوسط
المجلد: 2 العدد: 1جوان 2022 ص ص 9-23
ر ت م د (ISSN): 1184-2800
تاريخ الإرسال (2022/5/24) تاريخ القبول (2022/5/30) تاريخ النشر (2022/6/30)

دينامية التعمير و التمدن البحري في الفترة العثمانية الأولى بالمغرب الأوسط (الجزائر)

The Dynamics of Coastal Urbanization during the Early Ottoman Period in the Central Maghrib (Algeria)

بن حموش مصطفى♦
جامعة البليدة 1 سعد دحلب
البريد الإلكتروني : madinarch@gmail.com

ملخص :

شهدت شمال إفريقيا نموا عمرانيا غير مسبوق خلال الفترة العثمانية الأولى نتيجة نزوح العدد الكبير من الأندلسيين نحوها و التحاق المنطقة بالخلافة العثمانية. فقد توسعت العديد من المدن البحرية بعد تحررها من الاحتلال الإسباني و نشأت مدن جديدة، فيما انبعثت بعض المواقع الأثرية لمدن مندثرة بفضل وجود مواد البناء في المكان و توفر البنية التحتية.

لقد كان للحكام العثمانيين الأوائل دورهم البارز في انتقال المهاجرين الأندلسيين إلى الشواطئ الإفريقية و توزيعهم في الإقليم الجديد الملحق بالدولة العثمانية. كما كانت لهم اليد البارزة في تهيئة تلك المدن و توسيعها و تزويدها بالخدمات الدفاعية و المدنية و إدارتها طوال الوجود العثماني في المنطقة المغاربية الذي دام ثلاثة قرون (1516-1830).

و يكون تفاعل العاملين الجغرافي و التاريخي هو أحد محركات العمران في المنطقة الذي رسم معالم الخريطة البشرية التي نعيشها حاليا. فقد كان ارتباط المدن بالنشاط البحري أثره في التنوع الثقافي و الاجتماعي و الاقتصادي للمغرب الأوسط و انفتاحه على البلدان المتوسطية و على العالم. و بالتالي فإن تسليط الضوء على هذه المرحلة يمكن الباحثين في التاريخ و شؤون العمران و تخطيط المدن من فهم نمط

♦ المؤلف المرسل

توزيع المدن من جهة و مراحل نشأتها و نموها و تطورها من جهة أخرى و يفتح الكثير من المجالات المعرفية الأخرى من البحث المتعلق بالفترة العثمانية.

الكلمات المفتاحية:

العمران؛ الهجرة الأندلسية؛ شمال إفريقيا؛ الفترة العثمانية؛ الإدارة الحضرية.

Abstract:

The North African coast witnessed an unprecedented urban development during the early Ottoman period as a result of the exodus of a large number of Andalusians refugees. Many maritime cities expanded after their liberation from the Spanish occupation, and new cities emerged, while some archaeological sites of vanished cities emerged thanks to the presence of building materials in the sites and the existence of the previous infrastructure.

Ottoman rulers had a prominent role in hosting Andalusian refugees and their settling in the region since the first period of its annexing to the Ottoman Empire. Cities expanded, provided with defense and civil services, and managed throughout the Ottoman period.

The interaction of geographical and historical factors is one of the drivers of this urbanization, which drew the features of the human map in current days. The attachment of cities to maritime activities had its impact on the cultural, social and economic diversity of the Central Maghreb and its openness to the Mediterranean countries and to the world. Therefore, shedding light on this period enables researchers to understand the pattern of distribution of cities on the one hand, and the stages of their inception, growth and development on the other hand.

Keywords:

Urbanisation; Andalusian Exodus; North Africa; Ottoman Period; Urban Management.

مقدمة: السياق التاريخي و الجغرافي

يرتبط الحضور العثماني في شمال إفريقيا ارتباطا عضويا بالمسألة الأندلسية و عمليات التهجير الجماعية للمسلمين من الجزيرة. فالتواريخ البارزة في

هذه المسألة و المتمثلة في سقوط غرناطة سنة 1492، و مقاومة البشارات و قرارات الترحيل النهائي سنوات 1609-1614[1] تذكرنا بالجانب الآخر من العالم الإسلامي الذي افتتحت فيه القسطنطينية سنة 1453 و دخلت في حضيرة الإسلام، مما كان له الوقع الكبير على موازين القوى في البحر الأبيض المتوسط، و في البلدان الأوربية و الصليبية بشكل خاص. و هكذا فإن قضية سقوط الأندلس التي امتدت على مدى قرنين او أكثر تبين أن سياقها التاريخي من جهة و جغرافيتها كان له الأثر المباشر في تدخل القوات العثمانية من جهة و نمط العمران البشري لمنطقة شمال إفريقيا. فالتغير الديمغرافي و الاجتماعي و الديني في الجزيرة الخضراء يقابله كذلك تغيرا مماثلا في بلدان الشمال الإفريقي.

إن طبيعة حركة الاسترجاع *Reconquista* الصليبية قد أخذت شكل إفراغ المدن و طرد الأهالي المسلمين منها و دفع تلك الحشود إلى الهجرة إلى المناطق الإسلامية الآمنة. و تكون تلك الأمواج البشرية المهاجرة قد اجتهدت أيما اجتهاد في حفظ ما بقي من نسيجها الاجتماعي، خلال عمليات تهجيرها و توطينها أو استيطانها في شمال إفريقيا. إن ذلك يسمح لنا بوصف هذا الحدث التاريخي الفارق بانزلاق مدن بأكملها نحو شواطئ شمال إفريقيا. فالسقوط التدريجي لمناطق إسبانيا المسلمة في أيدي القوات الصليبية هو المؤشر العكسي للتعمير المستمر في بلاد شمال إفريقيا.

أما الرافد الثاني من هذا السياق التاريخي فهو قيام القوات الإسبانية باحتلال شواطئ شمال إفريقيا و استيلائها على أغلب المدن الساحلية. فاستراتيجية تتبع المهاجرين الأندلسيين حتى في المناطق التي اختاروا الإقامة فيها كانت تهدف إلى ضمان الدفاع الاستراتيجي لإسبانيا المسيحية من أي احتمال لإعادة التواجد الإسلامي في قارة أوربا. و لذلك فإنه بالرغم من ازدهار أسطول إسبانيا بفضل اكتشاف العالم الجديد -أمريكا- و وضع اليد على الكثير من الثروات، لم تأل جهدا لإنشاء نقاط

---

[1] **سعيدوني (ناصر الدين)** : *الأندلسيون المورسكيون بمقاطعة الجزائر "دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر*، الجزائر، (د.ت)، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، ص 107-108.
بوطي (جمال) و عطية (عبد الكامل): « الهجرة الأندلسية الأخيرة وانعكاساتها على المهاجرين الأندلسيين في اسبانيا والجزائر 1609-1614 » ، *المجلة التاريخية الجزائرية*، المجلد 5: العدد 2، 2021، ص 539-551.

مراقبة دائمة و حاميات عسكرية متقدمة على طول الشريط الساحلي الجنوبي للبحر المتوسط ابتداء من برقة بليبيا على غاية سبتة و مليلة في المغرب الأقصى. و هكذا فقد تم احتلال مليلة سنة 1497، ثم هنين في 1531-1535 ثم المرسى الكبير بوهران ما بين سنتي 1505-1708 و 1732-1792 ثم وهران خلال فترتي 1509-1708 و 1732-1792 و بعدها قصبة الجزائر من 1510 إلى 1516 ثم بجاية ما بين 1510-1555 ثم عنابة ما بين 1535-1540 ثم بيزرت 1535-1573 ثم الغوليطا 1535-1574 ثم تونس التي أصبحت تحت حمايتها 1573-1574 و 1569 ثم سوسة سنوات 1537-1574 ثم المونستير بتونس سنتي 1550-1554 ثم المهدية سنتي 1550-1553 ثم جربة خلال فترتين هما 1521-1524 و 1559-1560 ثم طرابلس خلال الفترة 1510-1530.[2]

1. الصراع العثماني-الإسباني

إن التواجد العثماني في غرب البحر الأبيض المتوسط يمكن اعتباره صراعا وجوديا و استراتيجيا، يتمثل في استئناف المواجهة بين الإسلام و الصليبية من جهة و السيطرة على البحر المتوسط من جهة أخرى.

لقد كانت من أولويات العثمانيين بعد فشلهم في إعادة فتح الجزيرة الإيبيرية، تأمين الشريط المتوسطي الجنوبي ابتداء من ليبيا إلى وهران بل و المغرب الأقصى كضرورة دينية و سياسية لإلحاق شمال إفريقيا بالخلافة الجديدة، و هو ما انعكس في توافق الإرادة الجماعية لسكان المنطقة و السلطة المركزية في الباب العالي. و لذلك فإن استرداد المدن الساحلية لبلاد المغرب الإسلامي أصبحت مسألة حيوية ما لبثت أن وجدت نفسها في إطار جيوستراتيجي أكبر هو المواجهة بين العالمين الإسلامي و المسيحي في القرن الخامس عشر. و لا يتعارض انتزاع العثمانيين للشريط

[2] أنظر:

FUCHS (Barbara) & **LIANG (Yuen-Gen)**: « A Forgotten Empire: The Spanish-North African Borderlands », *Journal of Spanish Cultural Studies*, 12:3, 2011, p. 261-273. DOI: 10.1080/14636204.2011.658695.

BA (Daha Chérif): « Les colonies portuaires espagnoles au Maghreb du XVI^e^ au XX^e^ siècle 2ème Partie », *Insaniyat*, 49, 2010, p. 73-93. DOI : https://doi.org/10.4000/insaniyat.4363.

المتوسطي الجنوبي من تونس إلى وهران من أيدي القوات الصليبية الإسبانية مع البعد الاقتصادي المتمثل في التوسع التجاري بالتحكم في الموانئ و تطوير الأساطيل و الأساليب البحرية في تلك الفترة.

إن الحديث عن العمران يقودنا حصريا إلى الإحصائيات و ديمغرافيا الأندلس. فالتقديرات تتضارب حول عدد الأندلسيين في شبه الجزيرة بداية، ثم عدد الذين هاجروا من ديارهم نحو مختلف أصقاع العالم. ففي حين تتقارب الأرقام حول العدد الإجمالي المقدر بحوالي 300.000 نسمة، فإن مصادر أخرى تقدر سكان شبه الجزيرة الإبيرية الكلي آنذاك بحوالي ثمانية ملايين ونصف مليون نسمة مما قد يرفع عدد المهاجرين إلى فئة الملايين[3].

و مهما يكن من تقديرات فإنه امتدادا للطلب الحثيث للأندلسيين النجدة من الباب العالي الذي أصبح الممثل الشرعي للخلافة و لوجود المسلمين في العالم، فقد تولي الأسطول العثماني مهمة نقل المهاجرين الأندلسيين إلى شواطئ شمال إفريقيا، و تأمين الحماية للمورسكيين العالقين في شواطئ إسبانيا. فقد ذكرت بعض المصادر أن قادة الأسطول العثماني خلفوا ألف مقاتل من العسكر يحرسون جماعة المسلمون الباقية، فتكررت هذه العملية سبع مرات، نقل فيها سبعين ألف من الأندلسيين إلى الجزائر. ولم يكتف أهل الأندلس بالاستنجاد بخير الدين بربروس بل طلبوا المساعدة أيضا من السلطان العثماني سليمان القانوني عام (948هـ-1541م)[4]

من المؤكد أن هبّة العثمانيين و تقديمهم السند لسكان المنطقة كان له أثره الإيجابي البليغ على باقي المهاجرين بل و على سكان منطقة شمال إفريقيا كلها. و لذلك فإن إلحاق الجزائر أو المغرب الأوسط آنذاك بالخلافة العثمانية قد يكون له تأثيره المباشر في تفضيل هؤلاء المهاجرين الجزائر للاستقرار رغم اعتقادهم بأن تلك الإقامة مؤقتة في انتظار العودة إلى الديار. و قد ازداد هذا التأثير مع صعود دور الأسطول الجزائري العثماني الذي استفاد كثيرا من الخبرات المحلية و الأندلسية.

JAP (Jones): *Challenging History: Europe 1500-1600*, Surrey, Thomas Neslon, 1997.

[4] **بلغيث (محمد الأمين)** :*فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي*، الجزائر، أنتير سيني، 1428هـ/2007م.

إن الفرصة التاريخية المأمولة لدى كثير من الأندلسيين هو أساسا النجاة من البطش الصليبي ثم استرجاع الأرض أو الفردوس المفقود، و العودة السريعة إلى البلاد الضائعة. و يكون للكثيرين من هؤلاء الانخراط في الاسطول العثماني الجزائري فرصة للمقاومة و الجهاد.

و بذلك فقد تحول المغرب الأوسط -الجزائر فيما بعد- إلى أخطر بلد يهدد أمن واستقرار إسبانيا المسيحية بسبب الوجود الموريسكي المكثف على الشواطئ و تداخله مع الحضور العثماني، مما أعطى للصراع نفسا طويلا دام ثلاثمائة سنة[5].

2. دينامية التعمير و التمدن البحري مظاهر التطور العمراني

من مظاهر التطور العمراني البارز للتواجد العثماني في المنطقة، النمو الديمغرافي غير المسبوق الذي نتج عن الهجرات الجماعية المكثفة و المتتالية لسكان الأندلس. فقد حدث أن تشبعت الكثير من المدن القائمة بالوافدين إلى حد فاض فيها السكان خارج الأسوار، كما هو حال مدينة الجزائر العاصمة أوائل إلحاقها بالحكم العثماني[6].

فما هي مظاهر العمران في شمال إفريقيا الذي ارتبط بالتواجد العثماني و الذي تزامن مع سقوط الأندلس و نكبة أهلها؟ و كيف قام العثمانيون بإدارة تلك المدن طيلة القرون الثلاثة التي ارتبطت بملامح السلطة الجديدة و حافظت في نفس الوقت على طابعها المحلي؟ و ما هي إسقاطات تلك الحركة العمرانية على نمط التوزيع السكاني الجغرافي في المنطقة؟ تلك هي الأسئلة الرئيسية التي سيتطرق إليها البحث.

---

[5] **المدني (أحمد توفيق)**: *حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492-1792*، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1965.

[6] **بن حموش (مصطفى)**: *المدينة و السلطة في الإسلام: الجزائر في العهد العثماني*، دمشق، دار البشائر للطباعة و النشر، 1999.

1.2-التنمية الزراعية

شهد القطاع الزراعي نهضة كبيرة نتيجة المساهمة الكبرى للمهاجرين الأندلسيين في هذا المجال و ذلك بفضل خبراتهم في الوطن الأم. فقد عرفت المنطقة بروز تقنيات زراعية و مائية متطورة، وارتفعت نسبة الأراضي المستصلحة و محاصيلها في سهل متيجة، و في عنابة، وتلمسان ووهران. كما اشتهرت الكثير من المناطق بإنتاج مختلف أنواع الفواكه، مثل حب الملوك والإجاص، والتفاح والبرتقال، والعنب إلى جانب زراعة الزيتون والخضر والفواكه، و زراعة التوت والأرز والقطن في كل من مستغانم ومليانة وعنابة.

2.2-النهضة الاقتصادية

لم تقتصر إسهامات الأندلسيين على الفلاحة، كون الكثير من الفئات الاجتماعية الأخرى كانت تتمتع بمهارات عالية. فقد شهد القطاع الحرفي و المهني تطورا غير مسبوق في مدن شمال إفريقيا كان له الأثر الكبير في توسع الأسواق و تنوع البضائع و السلع. لقد برعت الجاليات المهاجرة في العديد من المهن و الحرف مثل الخياطة (جلود، حرير، أقمشة)، والنجارة والحدادة و البناء. و لا تزال الكثير من الصناعات التقليدية التي تتوفر في الأسواق مثل القطيفة والشبيكة النسوية شاهدة على براعة المرأة الأندلسية في الجزائر حسب ما تبينه وثائق الأرشيف العثماني بالجزائر.

و لعل صدور الفرمان الذي يأمر بعدم منع الإطارات الأندلسية من تقلد مناصب عليا و ممارسة أعمال نبيلة مثل الطب و الفتوى و غيرها، و حمايتهم من السكان المحليين هو أكبر دليل على مدى استحواذ الاندلسيين المهاجرين على الكثير من الحرف مما قد يكون أثار حفيظة أصحاب بعض السكان المحليين الذين يكونون أقل مهارة[7].

[7] مركز الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفتري رقم 23 صحيفة 121حكم رقم 244. أنظر كذلك **بن حموش (مصطفى)** : *المدينة و السلطة في الإسلام: نموذج الجزائر في العهد العثماني.*

3.2-شبكة الماء و الري

لعل أبرز مظاهر العمران الذي لا تقوم كلا من المدن و الزراعة إلا به هو الماء الوافر. فمن خلال الوثائق العثمانية فإن شبكة تزويد المدينة بالمياه شهدت توسعا كبيرا خلال الفترة العثمانية تماشيا مع التطور الديمغرافي و تزايد الطلب و التحكم في تقنيات جلب الماء و تصريفه.

و لعل النموذج البارز لهذه الأشغال الكبرى التي تركت بصماتها على المشهد الإقليمي هو إنشاء القناطر العلوية الحاملة لقنوات المياه، و كذلك الأنفاق التي تخترق الجبال و المناطق المرتفعة بحكم قانون انحدار المياه من منابعه نحو المدن و المحافظة على نظافته. ففي حالة الجزائر التي كانت تعتمد سابقا على المياه الجوفية و الآبار الأرتوازية التي يقوم بها السكان و التي تتوفر في كل بيت، شهدت المدينة أشغالا عديدة و متلاحقة تمثلت في بناء تلك القنوات. فقناة الحامة التي قام بالإشراف عليها أحد من أهل الخبرة الأندلسيين، سطا موسى الأندلسي، كانت تجلب الماء من مصادر تبعد حوالي 5 كلم عن المدينة[8]. أما قناة تيلملي التي تدخل من جهة الباب الجديد أعالي المدينة، فيبلغ طولها حوالي 2 كلم. أما قناة بير طرارية و التي تنطلق من حصن الإمبراطور، فإنها تدخل المدينة من طريق باب الواد، فيما كانت قناة عين الزبوجة التي تبلغ حوالي 19 كلم، تنطلق من بن عكنون، مرورا بمنطقة الثغريين "الطغارة"، لتزود المدينة هي الأخرى من الجهة العلوية. و من الشهادات التاريخية التي تعكس قيمة هذه الشبكة و أهميتها الحيوية، هو الاعتماد الكلي للسلطات الفرنسية طيلة الفترة الأولى من استيلائها على المدينة التي استمرت إلى سنة 1845، حيث لم تشرع في تطوير نظام جديد مناسب لتوسع المدينة إلا بعد ذلك التاريخ[9].

4.2-تطوير الموانئ و تحصينات المدن

من تبعات الاهتمام الإستراتيجي بالمدن البحرية و ضرورة استمرار التفوق العسكري هو تطوير الموانئ و إنشاءها إذا اقتضى الأمر، و هو ما حدث في عدة مدن قائمة خلال الفترة العثمانية. فميناء الجزائر يشهد بتلك الجهود الضخمة التي

[8]**KLEIN (Henri)** : *Feuillets d'Al-Djezair*, Année 1937, p. 189-190.
[9]**KAMECHE-OUZIDANE (Dalila)** : « Les aqueducs à souterazi de la Régence d'Alger », *e-Phaïstos*, II-2, 2013, p. 73-84.

اقتضت ربط تلك الجزر الصغيرة المقابلة للمرفأ المدينة ببعضها و إنشاء الرصيف الذي يشبه عنق الزجاجة، و ذلك بهدف توفير حماية السفن من الرياح و تسهيل نقل البضائع و الإقلاع[10].

كما عرف ميناء مدينة بجاية الذي ارتبط منذ العهد الحفصي بالتجارة مع المدن المتوسطية مثل جنوة و نابولي و مرسيليا، الاهتمام البالغ لدى رياس البحر العثمانيين. فقد كان تحت سيطرة القوات الإسبانية منذ سنة 1510، و لم يتحرر إلا سنة 1555 على يد صالح رايس بمساعدة الأهالي. و قد شهد مواجهات عديدة مع الأساطيل الأوربية كما هو الحال مع الأسطول الإنجليزي سنة 1671[11].

أما ميناء وهران، فهو بدوره كان مسرحا للأحداث و المواجهات. فقد دام احتلال القوات الكاثوليكية الإسبانية له في إطار متابعة المهاجرين الأندلسيين منذ سنة 1509 إلى غاية 1791 بعد أن نجح حسن باشا من انتزاعه من أيديهم.

و نظرا للوضع الجيوسياسي خلال الفترة العثمانية، فقد كانت المدن الجزائرية الساحلية تحت التهديد الدائم من القوات البحرية الأوربية. وقد استمرت تلك التهديدات و الهجومات منذ أول عهدة للحكام العثمانيين سنة 1516 في المنطقة إلى غاية سقوط المنطقة في أيدي الاحتلال الفرنسي 1830.

و لذلك فقد كانت مدينة الجزائر تلقب بدار الجهاد، ذلك الوصف الذي يعبر فعلا عن الدور العسكري للشريط البحري لمدن شمال إفريقيا في مواجهة الامتداد الأوربي نحو الجنوب و دور المدن في رد القوات الصليبية التي كانت تعتبر الإسلام خصما دائما لها. و لذلك فإن عمران المدينة و نمطها العمراني كثيرا ما يمكن تفسيره بهذا الطابع الدفاعي و التسلح الدائم استعدادا للمواجهة البحرية.

تعكس خريطة بيري ريس بكل وضوح الاهتمام الإستراتيجي للعثمانيين بالمدن منذ أول نزول لهم في المنطقة، و ذلك بحكم ضرورة السيطرة البحرية و التفوق العسكري. فالمدن الجزائرية المذكورة في الخريطة هي المرسى الكبير و وهران و

[10]**LESPÈS (René)** : « Le port d'Alger », *Annales de Géographie*, t. 30, n°165, 1921, p. 195-222. DOI : https://doi.org/10.3406/geo.1921.8981.
[11]**Association GEHIMAB** : *L'Amiral Turc Piri Reis à la Zawiyya-Institut Sidi Touati Béjaïa (1495)* , Laboratoire LAMOS, Université de Béjaïa, http://gehimab.org/depliants/depliants/depliant25.pdf.

مستغانم و تنس و شرشال و الجزائر و بجاية وعنابة كان لها الدور الأساسي في الدفاع البحري[12]. و من الواضح من خلال تفاصيل الخريطة التي تتعلق بكل مدينة أن صاحب الخريطة صب اهتمامه الدقيق بشكل الشواطئ و الخلجان و الرؤوس و الموانئ و اكتفى بالواجهة البحرية لتلك المدن، أو ما يظهر للمشاهد بحسب موقعه في البحر متجها نحو تلك المدن أو عابرا لها. و بقول آخر فإن تلك الخرائط بحكم استعمالها البحري لم تشمل ملامح تلك المدن على اليابسة و تحدد شوارعها و مبانيها و حصونها بشكل دقيق.

و من هذا الجانب فإن من أبرز مظاهر التطور العمراني خلال العهد العثماني هو تنمية المدن القائمة و إنشاء المدن الجديدة ثم إدارتها طيلة فترة التواجد العثماني في شمال إفريقيا. من المؤكد أن العديد من المدن القائمة إلى يومنا هذا قد كانت موجودة قبل العهد العثماني بزمن طويل، كما تشير إليه خرائط بيري رايس. غير أن التدفق الهائل للمهاجرين الأندلسيين الذي صاحبه تسلم العثمانيين قيادة المنطقة أدى إلى توسع كبير في المدن والمستوطنات القائمة و ازدياد عددها. ففي مقابل الطرد الجماعي للأندلسيين كان هناك استيطان كثيف و جماعي لهؤلاء المهاجرين في هذه المدن التي أصبحت تخضع للحكم العثماني. فقد شهدت الجزائر كعاصمة جديدة للإقليم العثماني توسعا كبيرا حول النواة الحضرية المسماة بالقصبة القديمة واكتظاظا غير مسبوق أدى إلى ظهور الأرباض فيها. فبعد الاستيلاء على الميناء و حصن البنيون كان لزاما على الحكام العثمانيين إنشاء أسوار جديدة حول المدينة و حصون للدفاع عنها. و لذلك فقد أنشئ السور الجديد حول الهضبة ليوفر المساحة الكافية للتوسع العمراني و إقامة السكان الجدد الوافدين سواء من العثمانيين أو الأندلسيين[13].

وتكون بذلك المدن القائمة الأخرى مثل بجاية و مستغانم و دلس و عنابة، كما هو حال كل من تونس و المغرب الأقصى، قد شهدت نفس الظاهرة، حيث

[12]**MANTRAN (Robert)** : « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis », *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°15-16. Mélanges Le Tourneau, II, 1973, p. 159-168. Doi : https://doi.org/10.3406/remmm.1973.1236.

[13] **بن حموش (مصطفى)** : *المدينة و السلطة في الإسلام. نموذج الجزائر في العهد العثماني.*

أصبحت الجالية الأندلسية جزءا من النسيج الاجتماعي الحضري بها إن لم تكن الغالبة في البعض منها.

أما مدينة شرشال فإنها تقدم نموذجا آخر للتطور العمراني الذي حدث في ضوء الإدارة العثمانية والمتمثل في إحياء المستوطنات المندثرة. فالمدينة التي لم يعد لها ذكر في كتب التاريخ، و التي تكون قد اندثرت و احتفظت بآثار شوارعها و بعض معالمها السابقة و بقايا مواد البناء يكون هو الدافع لإعادة إحياءها و تحفيز المهاجرين الأندلسيين لإعمارها و استغلال أطلالها لتطويرها و توسيعها. و قد كان للإدارة العثمانية الفتية دورها الفعال في تطوير ميناء المدينة و استقرار السكان المهاجرين الأندلسيين فيها و بسط الحماية عليهم[14].

أما النموذج العمراني الثالث فيتعلق بالمدن الجديدة التي نشأت بالموازاة مع تشبع المدن القائمة. فمدينتا البليدة والقليعة اللتان تقعان في سهل متيجة الخصب تشهدان بكل تأكيد مباشرة إنشاءهما بفضل التدخل العثماني المباشر لدى أهالي المنطقة و شيوخها، الذين تنازلوا عن الأراضي و قدموا التسهيلات المطلوبة لذلك و ساهموا بجانب المهاجرين في تشييدها و تنميتها.

و من مقتضيات التطور العمراني إن هذه المدن تحتاج إلى التواصل فيما بينها سواء من حيث الحاجة التجارية أو الاجتماعية أو الدفاعية، و هو ما دفع بالإدارة العثمانية بتطوير و توسيع شبكة الطرق. فوثائق الأرشيف العثماني تقدم لنا الأدلة على ذلك، من خلال عمليات استملاك الأراضي التي تمر بملكيات القبائل و العروش. و هكذا فإن الكثير من الطرق و المسارات الموجودة يعود أصلها إلى تلك الفترة[15].

---

[14] **CHENNAOUI (Youcef)**: « The forms of urban transformations of the roman city in the medina of Cherchell ». In *The Mediterranean Medina*, Micara Ludovico, Petruccioli Attilio and Ladini Ettore eds, International Seminar, Roma, Gangemi Editore, 2009, p. 39-43.

[15] **بن حموش (مصطفى)** : *فقه العمران الإسلامي: من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549-1830*، دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، 2000.

5.2-إدارة المدن

لا يقتصر العمران على إنشاء المدن و توسيع شبكة الطرق و المواصلات، بل يتعدى إلى مجال لا يقل أهمية عنه و هو إدارة تلك المجمعات الحضرية و ضمان حسن سيرها. و في هذا السياق فإن المراجع التاريخية المتعددة سواء من سجلات البايلك أو القرارات الفرمانية أو بيت المال أو كتابات الرحالة أو مذكرات الأسرى المسيحيين و كذلك من خلال تقارير سلطات الاحتلال الفرنسي التي استولت على المدن، تؤكد وجود نظام إداري حضري متكامل و متطور.

فالجهاز الإداري للمدينة سواء من حيث هيكلته و التشريعات التي كان يقوم عليها و التركيبة البشرية التي تسهر عليه، شهد تطورا مطردا ساير مظاهر العمران و مقتضيات الحياة المدنية للمجتمعات الحضرية آنذاك. فبخلاف الوجود المعماري المحتشم للعثمانيين في المدن، حيث اكتفوا بتشييد بعض المساجد و القلاع و الحصون و المنشآت الكبرى، فإن الجهاز الإداري يعتبر أكبر إنجاز لهم في مجال تخطيط المدن.

فقد تميز الجهاز الإداري الحضري العثماني بالمرونة العالية و الهرمية الدقيقة و نظاما تشريعيا قام بإرساء الأعراف الإدارية في المعاملات التجارية و الاجتماعية و القضائية. و لعل الاطلاع على الكم الضخم من الأرشيف العثماني في عواصم البلدان التي كانت تابعة للحكم العثماني و في إسطنبول، يغني عن الاسترسال في هذا الموضوع. فهو يقدم لنا نماذج متعددة من الوثائق الشرعية الخاصة بالحالة المدنية، و سجلات الأوقاف و الأحباس و البيوع و الإيجار، و معايير مراقبة الأسواق، و مصاريف الخدمات و المرافق و غير ذلك من المعاملات الجارية في المدينة[16].

أما من حيث توزيع المسؤوليات، فإن الجهاز الإداري يفيدنا بمدى التكاليف و المهام التي ترمي إلى ضمان حسن الإدارة الحضرية. ففي الوقت الذي كان فيه جهاز خاص بالأسواق يتعلق بالمراقبة و التنظيم يقوم عليه المحتسب و يساهم فيه المختصون وذوي الخبرة من كل حرفة، فقد كان كذلك نظام يتعلق بالمجال السكني و الأحياء، يقوم عليه أعيان تلك الأحياء و شيوخها، و يشرف عليه شيخ البلد. أما

[16] **بن حموش (مصطفى)** : *فقه العمران الإسلامي: من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549-1830*.

الخدمات العمومية مثل النظافة و الماء و حركة السير و الفضاء المحيط بالمدينة خارج الأسوار المسمى باسم الفحوص، فقد كانت تحت مسؤولية قادة مكلفين بمراقبتها و ضمان تسييرها، كما هو حال قايد العيون و قايد الشواري و قايد الفحص، و غيرهم.

إن تحليل النظام الإداري الحضري العثماني من جوانبه القانونية و هيكلته البشرية و المالية تدفع إلى القول بوجود نمط ذاتي *self-organisation* سمح للمدن بالاستدامة و الاستمرارية كما تؤكده التقارير الفرنسية التي تؤرخ للمدينة خلال السنوات الأولى من احتلالها. فقد كانت أجهزة الأوقاف التي مست أغلب الأنشطة الحضرية القائمة في المدينة، مثل التعليم و الصحة و الإيواء و العبادة و الحماية، تشكل النظام المالي المستقل عن القرارات الفوقية. أما شغل المواريث المخزنية فقد كان بمثابة بيت مال الدولة المكلف بمتابعة المواريث و حقوق المال العام[17].

الخاتمة

ارتبطت حركة النمو العمراني و شبكة المدن ببلدان شمال إفريقيا و المغرب الأوسط أيما ارتباط بنزوح العدد الكبير من المهاجرين الأندلسيين. فقد كان انتقالهم الجماعي نحو الشواطئ الإفريقية، أشبه بانزلاق مدن بأكملها من الجزيرة الإيبيرية نحو بلدان المغرب الكبير. وقد جاء ذلك نتيجة اتباع السلطات الصليبية الإسبانية سياسة التهجير و إفراغ المدن من سكانها المسلمين و تسليمها للسكان المسيحيين. أما من الجهة الأخرى، فقد كانت هناك لدى العثمانيين ما يشبه سياسة تعمير محكمة لإدماج هؤلاء المهاجرين بشمال إفريقيا.

و لعل من أبرز مظاهر التنمية العمرانية بالإضافة إلى إنشاء المدن و تحصينها و توفير الخدمات و المرافق فيها، هو تأسيس إدارة حضرية مرنة و فعالة، تتشكل أساسا من مجالين مختلفين ولكن متكاملين. فالمجال الأول يتمثل في السلطة العامة و الذي يتجسد في التحصينات و المساجد و البوابات و دور الحكم، و التي كانت تحت المراقبة الدائمة و المباشرة و الصارمة للإدارة. أما المجال الثاني فيتعلق

[17] **لنوار (صبرينة)** : « آليات تسيير مؤسسة بيت المال في الجزائر خلال العهد العثماني »، *مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية*/جامعة بابل، العدد 26، 2016، ص 89-97.

بالفضاء المجتمعي المتمثل في الأحياء السكنية و الفئات الإثنية المتنوعة التي عرفت إدارة تفويضية و فيدرالية يعود الأمر فيها للسكان و الأفراد.

و على هامش هذه التنمية العمرانية فإن الواقع المعاش قد عكس بعض النقائص الأكيدة و التي أثرت بدورها على المدن. فقد عرفت هذه المدن الازدواجية الإدارية و القضائية بسبب الاختلاف العرقي و المذهبي بين الطبقة الحاكمة التي كانت في أغلبها من الأتراك و الأعاجم من جهة، و السكان المحليين الذين يتشكلون من العرب و البربر و المهاجرين الأندلسيين و اليهود و الأسارى من جهة أخرى. لقد تجسد ذلك في التعايش المذهبي الحنفي المالكي في مدن المغرب الأوسط خلال الفترة العثمانية كلها. و كذلك من خلال ازدواج الوظائف القضائية و الإدارية و تواجد مساجد و محاكم خاصة بكل مذهب. و هكذا فقد احتفظت ذاكرة المدن بوقائع و اختلافات عديدة فتحت المجال لنقد الوجود العثماني في المنطقة.

كما تبين الشبكة الحضرية للمدن لهذه السياسة التي تقوم على النشاط البحري التواجد المكثف للمستوطنات البشرية من مدن و قرى على الشريط الساحلي. بمعنى آخر، فقد كان أحد أسباب اختلال التوازن العمراني بين الشريط الساحلي و المناطق الداخلية بالمنطقة، التي عرفت بالتواجد الإداري المحتشم و الاكتفاء بالولاء الصوري للدولة العثمانية.

المراجع

المراجع باللغة العربية

-**بلغيث (محمد الأمين)** : *فصـول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي*، الجزائر، أنتير سيني، 1428هـ/2007م.

-**بن حموش (مصطفى)** : *المدينة و السلطة في الإسلام: الجزائر في العهد العثماني*، دمشق، دار البشائر للطباعة و النشر، 1999.

-**بن حموش (مصطفى)** : *فقه العمران الإسلامي: من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 1549-1830*، دبي، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، 2000.

- **بوطي (جمال) و عطية (عبد الكامل)** : « الهجرة الأندلسية الأخيرة وانعكاساتها على المهاجرين الأندلسيين في اسبانيا والجزائر 1609-1614 »، *المجلة التاريخية الجزائرية*، المجلد 5: العدد 2، 2021، 539-551.

-**سعيدوني (ناصر الدين)** : *الأندلسيون المورسكيون بمقاطعة الجزائر "دار السلطان" أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر*، معهد التاريخ، الجزائر،(د.ت)، جامعة الجزائر.

-**لنوار (صبرينة)** : « آليات تسيير مؤسسة بيت المال في الجزائر خلال العهد العثماني » ، *مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية*/جامعة بابل، العدد 26، 2016، 89-97.

-**المدني (أحمد توفيق)** : *حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492-1792*، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1965.

المراجع باللغات الأجنبية

-**Association GEHIMAB** : *L'Amiral tuc Piri Reis à la Zawiya-Institut Sidi Touati, Béjaïa (1495)*, Laboratoire LAMOS, Université de Béjaïa, http://gehimab.org/depliants/depliants/depliant25.pdf.

-**BA (Chérif Daha)** : « Les colonies portuaires espagnoles au Maghreb du XVI^{e} au XX^{e} siècle, 2ème Partie », *Insaniyat*, 49, 2010, 73-98.

-**CHENNAOUI (Youcef)** : « The forms of urban transformations - of the roman city in the medina of Cherchell », in *The Mediterranean Medina*, Micara Ludovico, Petruccioli Attilio and Ladini Ettore eds.», International Seminar, Roma, Gangemi Editore, 2009, 39-43.

-**FUCHS (Barbara)** & **LIANG (Yuen-Gen)** : « A Forgotten - Empire: The Spanish-North African Borderlands », *Journal of Spanish Cultural Studies*, 12:3, 2011, 261-273.

-**JAP (Jones)** : *Challenging History: Europe 1500-1600*, Surrey, Thomas Neslon, 1997.

-**KAMECHE-OUZIDANE (Dalila)** : « Les aqueducs à souterazi de la Régence d'Alger », *e-Phaïstos*, II-2, 2013, 73-84.

-**MANTRAN (Robert)** : « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-i Bahriye de Pirî Reis », *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, 15-16, 1973, 159-168.